أَلوِلايَةُ التَّشْرِيعيَّةُ فِي الرُّؤْيَةِ القُرْآنيَّةِ
بَيْنَ المَنْظُورِ الدِّينيِّ وَالمَفْهُومِ السِّياسِيِّ

(بحث استدلالي)

(القسم الثاني)

الشيخ موسى راضي نصار
النجف الاشرف - العراق

فحوى البحث

كان القسم الأول من هذا البحث قد نشر في العدد الثامن عشر ونوهنا فيه بفحوى البحث الذي يخص الرؤية القرآنية لمسألة الولاية التشريعية وها نحن نكمل البحث في قسمه الثاني، بطرح مسألة هذه الولاية من المنظور الديني والمفهوم السياسي.

وكلها ضمن الرؤية القرآنية السديدة الى هذه الولاية

خصائص الحكم الولائي في القرآن

تنطلق رؤية الحكم الولائي في مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ -من دون ريب -من المنهج القرآني والسنة النبوية لكونهما يعتمدان معطيات تشريعية أفرزتها الحاجة الفعلية للمسلمين لتثبيت الكيان السياسي وحصر مرجعية الدين بالدولة، وإعادة ترتيب الجزيرة العربية والمناطق المحيطة بها من لوثة الوثنية إلى نهج التوحيد من خلال وضع النظم وقواعد الأحكام التي صيرتها فترة نزول الوحي من أهم الفترات الحاسمة لتنظيم مشروع الدولة الإسلامية وخصائص الحكم الولائي فيها، وقد تحدد نظام الدولة من خلال الدين المتكامل وليس هو الدين الذي تنحصر تعاليمه في علاقة الإنسان بربه فحسب وإنما هو نظام سياسي ينبثق من مفاهيم حقيقية للحياة تستهدف تكوين المجتمع وتنظيمه في ظل سلطة أرتبط النظام التأسيسي فيها منذ البدء بقداسة الوحي وتمحور وجودها حول مرجعية رسول الله ﷺ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [سورة النساء: ٥٩].

أما ما تقتضيه السياسة الدينية لدولة الرسول، فهي تسيير حياة المجتمع بحسب النهج الولائي، فهناك ثمة حاجة لوجود السلطة الولائية التي من شأنها تربية المسلم بما يلتزم به من ولاء التزاماً ذاتياً قائماً على الأيمان المطلق في طاعة الواجب وهو ما تمثله أرادة المؤمن المخلصة لأداء واجبها بعد ما يكون أيمانها مستمداً من ولاية الرسول التشريعية، وهو ما يجعل الاستجابة للأحكام الدينية وتنفيذها واجب الأتباع، إذا كان الأمر ظاهر الوجوب، أما إذا لم يُرد بها أمر دال على الوجوب، فذلك من باب الاقتداء في الأفعال أو الأقوال وهو ما يدل على الاستحسان ورجحان التأسي[1] برسول الله لقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ [سورة الأحزاب: ٢١].

لم يتوقف القرآن الكريم عند الأحكام التشريعية لتنظيم شؤون الأمة وإنما أراد

(١) الطوسي: التبيان ج٨ ص٣٢٨.

تعضيدها فأوجد الاستدلال بالطبيعة في آيات الآفاق والأنفس لتوضيح الصورة ذات الأبعاد الوعظية التي تتجلى فيها عظمة الخالق وتثير روح التأمل لتتضح لهم الحقيقة من خلال تلك الآيات التي تضيء دروبهم ليروه هو الحق، لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[سورة فصلت: ٥٣].

لم يجعل الله تعالى طريقاً في التكليف إلا إذا جعل الرجوع إلى العقل ضرورة تقتضيها أحكام الشريعة بموجب قاعدة التحسين والتقبيح العقليين والملازمة بين حكم العقل والشرع والرجوع إلى النفس لكونه تعالى جعل في نفس الإنسان عيناً مدركة لحقائق الأشياء[٢] وفهم معنوي للحياة وإحساس خلقي للاتعاظ بما يدور حوله من آيات الأفاق لما فيها من دلائل تعضد أحكام القرآن، وتثبيت حقائق الحوادث والمواعيد التي أخبر القرآن أنها ستقع، كإخباره بأن الله سينصر نبيهﷺ والمؤمنين ويمكّن لهم في الأرض ويظهر دينهم على الدين كله حيث دانت له جزيرة العرب ثم فتح بعدهﷺ المسلمون معظم أرجاء المعمورة فأرى سبحانه المشركين والمنافقين آياته في الآفاق وهي النواحي التي فتحها للمسلمين ونشر فيها دينهم، وهي آيات أخبر بها القرآن الكريم قبل وقوعها ثم وقعت على ما أخبر بها[٣] فكان كل ذلك الذي أخبر به القرآن داخلاً في ولاية الله المطلقة وإليه يعود حق المالكية والتدبير ويعطي ملكه من يشاء.

كل ذلك وجده المسلمون في القرآن مسطوراً، وكان النبيﷺ يؤتي كل ما تحتاج اليه الأمة لهذه المرحلة من الآيات وإثبات حقائق الحوادث والمواعيد التي أخبر القرآن بوقوعها بواسطة الوحي التي لا تدع ريباً في رسالته التي أحكم الله قواعدها، كما أن الوحي كان يراقب عمل النبيﷺ وتطبيقه للأحكام، ومن ثم فإنه يمكن القول بأن حكومة الرسول في هذه الفترة توجه من قبل

(٢) القزويني: الاستعداد لتحصل ملكة الاجتهاد ص١٤٩ تحقيق جودت القزويني.

(٣) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن ج١٧ ص٤٠٤.

الوحي[٤] لتوثيق الصلة بوحدة العقيدة التوحيدية والاستعداد النفسي بالأيمان المطلق لتقبل الأحكام والتوجيهات القرآنية في ظروف سياسية واجتماعية حاسمة تقتضيها مرحلة التغيير من الوثنية إلى التوحيد مع ما رافقها من رؤية قرآنية أوجدت عند المسلمين متسعاً متكاملاً للاستبصار في دلائل العقيدة التوحيدية من خلال طاعة الله تعالى في ما أنزل على نبيه، وطاعة رسوله التي وثقتها أدلة النصوص القرآنية قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾[سورة التغابن: ١٢].

هذا النص يحدد معالم الحكم بحسب معطياته التشريعية وقيمه الولائية في أمرين: الأول طاعة الله، وهي أصل التوحيد، والثاني طاعة رسوله، وهي أصل النبوة، وهما طاعتان لا يمكن فصلهما، طاعة الرسول مستمدة من طاعة الله، وهي الانقياد لأمره تعالى فجمع في طاعة الله جميع الأحكام الشرعية، وجمع في طاعة رسول الله جميع الأحكام الولائية التي يصدرها رسوله في إدارة أمور الأمة وإصلاح شؤونهم كقراراته في الغزوات وأحكامه في القضايا المستحدثة وإجراء الحدود وغيرها[٥] وهي خصائص خاصة برسول الله ﷺ في شؤون الدولة لتثبيت أصول الحكم وإعطاء الحقوق السياسية والاجتماعية متسعاً في التشريع لترتقي في أحكامها ونظمها إلى آفاق من التصور الشمولي لنظرية الحكم ووظيفة الحاكم الذي من خصائص حكمه أن يكون عاملاً عادلاً لأن العدل أساس الحكم بين الناس وهو ما صرح به القرآن الكريم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ [سورة النساء: ٥٨].

في هذا النص تصور عام لخصائص الحكم جاء في أمرين:

الأول: أداء الأمانة، وهو تصور شمولي ضمني ينظر إليه من مسؤولية

(٤) محمد سعيد العشماوي: الإسلام السياسي ص١٦٠.

(٥) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن ج٩ ص٣٣٨.

ولاية الحكم على أن الأمانة التي حمّلها الله تعالى للإنسان يوم جعله خليفته في الأرض-المراد منها خاصية الحكم بين الناس -أن يؤدوا الأمانة، ومعنى الأداء أن الحكم بين الناس أمانة، وهو خطاب لولاة الأمور أن يؤدوا الأمانة والحكم بالعدل[٦].

الثاني: ليس لجميع الناس أن يؤدوا وظيفة الحكم بل ذلك لبعضهم ولما دلت سائر الأدلة على أن لابد للأمة من الأمام الأعظم[٧] المعصوم -في نظر الشيعة- المفترض الطاعة هو الذي يقوم بمهمة الحكم وأن الولاية تكون له بموجب النص باعتبارها من أصول الدين، وأصل مرجعها هو الكتاب والسنة، وقد أمر الله تعالى كل واحد من الأئمة إلى أن يسلم الأمر إلى من بعده[٨] وهي الأمانة التي ذكرها الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [سورة النساء: ٥٨] ويفسر الآية قول الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام: الحق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدي الأمانة، فإذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا[٩] وروي عنهم عليهم السلام أنهم قالوا: آيتان احداهما لنا والأخرى لكم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [سورة النساء: ٥٩] وهذا القول: داخل في القول الأول: لأنه من جملة ما أتمن الله عليه الأئمة الصادقين[١٠].

تأثير الحكم الولائي في المجتمع:-

السؤال الذي يجب أن يطرح هل يمكن القول، أعتباراً لأهمية الروابط الولائية في حكومة الرسول، أن الحكم الولائي يجب أن يكون دوره مؤثراً في المجتمع أم هو كسائر الحكومات الدنيوية التي حكمت المجتمعات، دورها نسبي في التأثير؟. ويتضح من محاور البحث السابق اعتبار أن الملزم هو نصوص

(٦) الزمخشري: الكشاف ج١ ص٥٢٣.
(٧) الفخر الرازي: التفسير الكبير ج١٠ ص١٤٢.
(٨) الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن ج٣ ص٦٣.
(٩) الفخر الرازي: التفسير الكبير ج١٠ ص١٤٢.
(١٠) الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن ج٣ ص٦٣.

القرآن والسنة إذا كان الحاكم العادل، خاص بمن يصطفيه الله تعالى للولاية، ليس بالضرورة أن يكون دوره مؤثراً في عملية التغيير الاجتماعي كما هو في مسيرة المصلحين، فإذا أعرض البعض من المجتمع عن سياسة التغيير الإصلاحي إذا كان منهج التغيير دينياً أو سياسياً أو مجرد تغيير عام كما تنص الآية: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

معنى التولي -في الآية- الإعراض، وليس على ولي الأمر الإكراه في الطاعة إن اعرض بعض الناس عن التلقي، وإنما عليه التبليغ فقط، وهي سيرة النبي صلى الله عليه وآله في ولايته للأمة وما حدث له مع المنافقين الذين رفضوا الاصلاح كما هي سيرة أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً في ولاية حكمه وتربيته للأمة وإصلاح شؤونها حيث أعرض الأمويون ومن تابعهم عن عملية الإصلاح ولكن الأمام عليه السلام لم يتوقف بل واصل التحرك وبلّغ ما أمكن تبليغه.

وهي تجربة حضارية رائدة في تاريخ الحكم -بالمقاييس المعاصرة- لكون رسول الله صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام كانا يمارسان الحكم ليس لمجرد سلطة فعلية، وإنما حكومة ولائية مطلقة ترتكز على نصوص القرآن والسنة فهي حكومة تحكيم يلجأ إليها الناس مختارين غير مجبرين عند التنازع بخلاف النظرية القائلة بالوجوب الكفائي أو نظرية قوة العصبية هي التي تصنع الحكم وتؤسس الدولة[11] وهي فكرة نشأت في أحضان الدولة الأموية مؤداها العملي ((اقتران العصبية بالدين)) ثم تشعبت بعد ذلك ودخلت في منهج ابن خلدون الاجتماعي وأصبحت نظرية سياسية في تاريخ الاجتماع السياسي ولكنها على غير هدى القرآن.

أما النظام السياسي لمفهوم الدولة الذي سارت عليه الخلافة الإسلامية طيلة القرون المنصرمة ولم تكن تعبر بالضرورة عن إرادة القرآن الكريم كوحي ينطلق من نصوص قرآنية لها قيم تشريعية ثابتة في الحكم وإنما هي ممارسات وتجارب سياسية كل فريق من هؤلاء المتغلبين ذهب إلى وضع رؤية خاصة أنتجت خلفاء وأمراء

(١١) ابن خلدون: المقدمة ص١٧٢.

جور لا يحكمون بعدل ولا يردون شيئاً إلى كتاب ولا إلى سنة، وإنما يتبعون شهواتهم حيث ما ذهبت بهم، فهم منسلخون عن صفات الدين وهم مع ذلك يطلقون على أنفسهم أولوا أمر المسلمين وأحق صفاتهم-كما قال الزمخشري -اللصوص المتغلبة[١٢].

الولاية التشريعية والتنائية الحزبية في النص القرآني

يعدُّ النص القرآني المرجعَ الأساس للعلاقات الاجتماعية والسياسية بين الدين والدولة الإسلامية، ويؤسس إلى تصور شامل لمراحل التحول وتنظيم الدولة ومحاولة تشخيص الحوادث التي حدثت في عصر النزول أو ما قبله بما يرتبط بمفهوم التعددية الحزبية وإعطاء صورة واضحة عن ((الصفوة المختارة)) و ((النخبة المنتقاة)) من تلك الأحزاب وجعلها نموذجاً للإقتداء ومادة لعملية الفرز والاستقطاب السياسي فتصبح تلك النصوص ذات قيمة تشريعية وتنظيمية اكتسبت أبعاداً في عمق الأحداث المؤسسة لهيكلية الدولة، ومن تلك الأبعاد ذات العلاقة بمفهوم التعددية الحزبية، جاء القرآن مخبراً عن واقع إنساني في عمق التاريخ أرتبط بمفهوم حزبي من تجارب الأمم التي سبقت الإسلام، كان غرضه ألأخباري تحذير المسلمين من الاقتداء بالأحزاب غير الشرعية. كما أن النصوص القرآنية أشارت بوضوح إلى وجود أحزاب قائمة فعلاً أثناء البعثة النبوية وهي أحزاب تشكلت في الجزيرة العربية مناهضة للدعوة الإسلامية.

وقد يلاحظ من النصوص القرآنية ذات العلاقة بموضوع التعددية الحزبية التي تحدد نمط التعامل مع الولاية التشريعية التي ارتبط وجودها بالثنائية الحزبية -حزب الله وحزب الشيطان- ارتباطاً واقعياً في المجتمع حتى أوجد عملية جدلية متوترة ليس تعبيراً عن العمل المشروع لهذه الثنائية بل التعامل مع ذلك التوتر إلى حد الإقصاء لأن النصوص القرآنية تعطي مشروعية العمل في دولة الرسول إلى حزب واحد وهو ((حزب الله)) ولا تعترف بغيره

(١٢) الزمخشري: الكشاف ج١ ص٥٢٤.

من التعددية الحزبية أو شرعية العمل لها في أطار نظام الدولة والمجتمع، وقف القرآن منها موقفاً سلبياً لا يقر بشرعيتها ولكن يعترف بوجودها كمكون اجتماعي خارج أطار الشرعية الإسلامية بما يقتضيه كفرهم وعنادهم لكونه في ضلال دائم يصعب الخروج منه لما له من دالة شيطانية يخادعون بها أنفسهم حتى نسوا ذكر الله فوصفهم القرآن بالخاسرين ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [سورة المجادلة: ١٩].

إذن من الطبيعي أن الصراع في المجتمعات الإنسانية ينتج الخلاف والخلاف بدوره ينتج التحزب فهي ظاهرة اجتماعية أشار إليها القرآن ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ [سورة يونس: ١٩].

ومن الواضح أن النصوص القرآنية ذات العلاقة بموضوع الأحزاب تحدد بشكل قاطع تصريحاً وتلميحاً بأن البشرية تنتظم بالضرورة وبالواقع في حزبين لا ثالث لهما ((حزب الله)) و ((حزب الشيطان)) وينطوي أفراد الجنس البشري تحت أحد هذين الحزبين تلك حقيقة واقعية لامراء فيها يمكن استخلاصها من النصوص القرآنية[١٣] المرتبطة بالوعي الديني الذي يؤطر مختلف هذه المعايير الاجتماعية.

وقد تكرر مصطلح ((الأحزاب)) في القرآن إحدى عشرة مرة في سبع سور مكية ومدنية، وجاء بصيغة المفرد والمثنى والجمع، وفي جميع المرات أرتبط مفهوم تلك الأحزاب ((بالسلبية)) التي تحمل معنى الرفض وعدم القبول ولم يرتبط هذا المفهوم أبداً بالايجابية والنصوص القرآنية زاخرة في ذلك[١٤].

أما مصطلح ((حزب الله)) فقد جاء

(١٣) مجلة المنهاج عدد ٦ السنة الثانية ص٤٧.

(١٤) قوله تعالى: ﴿ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [سورة مريم: ٣٧] وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾[سورة هود: ١٧] وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ﴾[سورة الرعد: ٣٦] وقوله تعالى: ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾[سورة ص: ١١] وقوله تعالى: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ﴾[سورة الأحزاب: ٢٠].

ثلاث مرات في القرآن الحكيم وأنتظم في سورتين مدنيتين هما سورة المائدة وسورة المجادلة واتصلت نصوصه اتصالاً مباشراً بمفهوم الولاية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[سورة المائدة: ٥٥ –٥٦].

وقد أتخذ هذا النص القرآني بعدين:

البعد الأول، مصطلح الولاية وهوَ القرب الخاص في الأمور المعنوية، كالقيادة السياسية، والمرجعية الدينية، القرآن والسنة، ومصطلح الموالاة والتولي يعني الولاء للقيادة الشرعية والانتماء لها بالعضوية، والأتباع من الذين عرفوا بولائهم لتلك القيادة وهم النخبة والصفوة المؤمنة.

البعد الثاني: مصطلح ((حزب الله)) على ما ذكره الراغب، جماعة فيها غلظ[١٥] وفسرها البعض بالطائفة، أو الجماعة التي فيها شدة –إليه تعالى خاصة، فوصفهم القرآن ((بحزب الله)) تعظيماً لهم وتعضيداً بمن لا يغلب[١٦] ثم وصفهم بالفلاح أيضاً قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة المجادلة: ٢٢] فتصح أن تكون هذه التسمية تشريفاً لهؤلاء المخلصين في إيمانهم بأنهم حزبه تعالى[١٧].

وفي القرآن أشارات متعددة تصريحاً وتلميحاً يدين التعددية الحزبية بحسب مفهوم اللغة القرآنية ولا يقر بشرعيتها ولكنه يقر بوجودها[١٨] على الأرض كمكون سياسي يجسد نزعة الكفر والضلال، بهم يظهر التضاد مقابل العقيدة التوحيدية التي تعكس الرؤية السياسية للولاية، فهي ليست مجرد رؤية، وإنما توضيح الحق الممثل في ((حزب الله)) والباطل الذي يمثله ((حزب الشيطان)) وهما متقابلان تقابل التضاد، مختلفان في الدلالة والمضمون لأن التعبير القرآني لا يرمي إلى مجرد أداء المعنى الذهني،

(١٥) الراغب: المفردات ص١١٥.

(١٦) الزمخشري: الكشاف ج١ ص٦٤٩ والآلوسي: روح المعاني ج٣ ص٣٣٨.

(١٧) الطباطبائي: الميزان ج٩ ص١٦٧.

(١٨) انظر مجلة المنهاج عدد ٦ السنة الثانية ص٤٧.

وإنما يريد توضيح الصورة التي تمثل أداء الحزبين، في التواصل الديني عقيدة وولاءً وولاية شرعية اقتضتها القيادة لأعضائها وأتباعها وولاية غير شرعية باطلة اقتضتها قيادة ظالمة ليتم الغرض وتتضح الصورة في الآيتين قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[سورة المائدة: ٥٦] مقابل الباطل الذي تمثل بحزب الشيطان قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [سورة المجادلة: ١٩].

محور الصراع في الآيتين ديني يخص ((الولاية التشريعية)) في موقعها السياسي في الآية الأولى: تحدد مقياس الانتماء وطريق الاختيار إلى ((حزب الله)) وهي الولاية الشرعية في نظر القرآن وبموجبها تنتظم عملية التنظير للشريعة الإسلامية وهي الأجدر بأن تكون القانون العام والخاص للمسلمين جميعا.

أما الآية الثانية: فتحدد توصيف المنافقين الموالين لأعداء الله من الوثنية القرشية وغيرهم من المنافقين بأنهم ((حزب الشيطان)) وهي ولاية باطلة غير شرعية تتبع عملية من التمويه لمفهوم الحاكمية وما ينتج منها من وعي زائف وعوامل اغتراب وإحباط وسلوك عدواني تكفيري حدث في صدر الإسلام ويحدث على أشده في المعاصرة.

هذه النصوص القرآنية توضح حالة النزاع الديني السياسي الذي كان عليه مجتمع الجزيرة العربية في فترة الوحي، الأمر الذي دعا إلى تفاقم هذا الصراع، وقد أظهرت النصوص القرآنية العداوة والبغضاء المتأصلة في ((حزب الشيطان)) حافلة بعناوين يختلف بعضها تذكيراً وتحذيراً للمؤمنين عارضة صورة الولاية غير المشروعة في نظر القرآن وهي ولاية ((حزب الشيطان)) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[سورة المائدة: ٥١] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ

مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[سورة الممتحنة: ١].

﴿ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[سورة النساء: ١٣٨ -١٣٩].

تكررت هذه العناوين في القرآن وكان محتواها الدلالي ومضمونها المعنوي عدم موالاة اليهود والنصارى والكفار ومن تابعهم لكونها موالاة غير مشروعة عرّفها القرآن ((بحزب الشيطان)) إذ كانت هذه الموالاة نصرة أو موالاة مودة كلها تفضي إلى أتباع الآخر في الاقتداء والتناصر والتعاطف على الباطل كما أشعرت باستعراضها الدائم غير المنقطع بانقطاع الوحي، وإنما تفاعلها آت ومستمر لكل زمان ((حزب الله)) و ((حزب الشيطان)) وهما أبديان سرمديان في الحياة الاجتماعية.

هذا العرض القرآني للمفهوم الحزبي أكثر انسجاما وملاءمة للحياة السياسية التي يرتكز مفهومها على ((الولاية)) التشريعية ودور الدين في الحياة الإنسانية.

محاور الصراع الحزبي في القرآن الكريم

تحدث القرآن الحكيم بوضوح عن وقائع حزبية في تاريخ الأمم التي سبقت الإسلام، أو التي عاصرت الدعوة الإسلامية وكان غرض القرآن استقصاءه للحركات ذات الطابع الحزبي من الذين تحزبوا على الرسل والأنبياء وكذبوهم وجادلوهم بالحق الذي هو من وظيفتهم إثبات وحدانية الله وتوكيدها في نفوس الناس، ولعل القرآن سلك أقرب الطرق لتعريف المسلمين بأخبار الماضين، وهو إخبار تاريخي كان المسلمون يفتقرون لمثله كما جاء في قوله تعالى: ﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَا ﴾[سورة هود: ٤٩].

ولما كان غرض القرآن هو الإخبار عن سالف الأمم والوقوف على تاريخها نرى مهمته الأولى تنحصر في الغرض الديني ((التوحيد ونبذ الشرك)) عندما يقع المجتمع تحت طائلة الأحزاب أو عوامل التأثير إلى تحرك الأمم ضد الرسل والأنبياء، باعتبار أن دعوتهم إلى التوحيد

حقيقة واحدة لم تتغير بتغير الزمن فمن المرجح ضرورة التوجيه والمعالجة للوضع الوثني القائم آنذاك وإشعار الذين آمنوا أن إثبات وحدانية الله وتوحيده كان ولا يزال داخلاً في إرادة القدرة الالهية ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٥] ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾[سورة الأعراف: ١٨٦] ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾[سورة البقرة: ٢٧٢].

ومعنى ذلك أن المؤثر في الاهتداء هو الله تعالى صاحب القدرة على دحض نزعة الشرك المتمثلة في أولياء الشيطان، وانتصار الإيمان الممثل في أولياء الله وحزبه، فلا ريب في أن يتلقى المسلمون هذه الأخبار الوعظية بالقبول والتسليم لأمره تعالى ليتضح لهم من تلك التجارب الأممية السابقة لعصرهم ليكونوا على علم ودراية بما يحدث حولهم من أحزاب الجزيرة العربية التي تمارس نشاطها الوثني ضد الإسلام.

لذا نجد أن هذه الأحزاب المعاصرة للدعوة والقائمة على الضلال استطاعت بمؤسساتها القبلية أن تستقطب عدداً كبيراً من أتباعها من دون اتخاذ مواقف سياسية واضحة ومحددة من حكومة الرسول الناشئة في المدينة إلا ما ظهر من تحريض رؤسائها لتعرض مصالحهم للخطر وقيمهم الجاهلية للاندثار.

هذا الحراك الحزبي الذي رافق دعوة الرسول تشير بعض الآيات القرآنية إلى مجموعة من الاشارات التاريخية والغيبية صنفت من قبل المفسرين بحسب أدلة نصوصها إلى أربعة محاور[١٩] كل واحد منها تظهر عليه بصمة طبيعة عمله الحزبي.

المحور الأول: جاء في قوله تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾[سورة مريم: ٣٧].

تشير مفردات الآية -بحسب أدلتها- إلى مكون اجتماعي تمثل أداؤه في وقائع تاريخية اقترنت ((بالأحزاب)) عرفها بعض اللغويين بالجماعة -سواء صغرت ام كبرت -المستقلة في رأيها عن الآخرين[٢٠]

(١٩) هارون بن موسى القارئ: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ص١٥٧.

(٢٠) الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن ج٦ ص٥١٤.

وكل طائفة يجمعهم الاتجاه إلى غرض واحد و ((الأحزاب)) الطوائف التي تجتمع على محاربة الأنبياء عليهم السلام[٢١].

أما مفردة ((الاختلاف)) فهي: أن يعتقد كل قوم خلاف ما يعتقده الآخرون فكان نصيبهم الاختلاف فتفرقوا على ثلاثة أحزاب اختلفوا في عيسى عليه السلام فقالت اليعقوبية: هو الله، وقالت النسطورية، هو ابن الله، وقالت الاسرائيلية -المكانية- هو ثالث ثلاثة[٢٢].

أما العبرة من ذكر هذا المحور في النص القرآني، فهو أظهار حقيقة الأحزاب الباطلة في معالجة مسألة التوحيد التي كانت ولا تزال محور خلاف بين المسيحيين وتثبيت حقيقة الوحدانية وتوكيدها في نفوس المسلمين.

المحور الثاني: قوله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ -قوم شعيب- أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾[سورة ص: ١١ -١٤].

ليس غرض هذه الآيات الأربع المكية النزول، أن يتمثل فيها استعراض تصوري لتاريخ الأحزاب التي رافقت دعوة الأنبياء السابقين المذكورين في الآية الثانية والثالثة إلى التوحيد، وإن أشعرت الآية الرابعة بعقاب المتحزبين على الضلال يوم الجزاء، إلا أن بقدر ما يتضح من تركيبة السياق في الآية الأولى، وهو وقوع الإشارة الغيبية إلى الأحزاب المكية وما اتلف منها من جيش مهزوم سلفاً في معركة ((بدر الكبرى)) وغرض هذه الأخبار الغيبية كان تثبيتاً لدعوة النبي صلى الله عليه وآله لاسيما كانت في أوائل مراحلها -وتأثيراً في نفوس المسلمين والشدّ في عضدهم، وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله مما وقع له في مكة من كفار قريش أشارت أليه آيات سابقة[٢٣].

المحور الثالث: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ

(٢١) الجوهري: الصحاح ج١ ص٢٥٨ ومعجم الفاظ القرآن ج١ ص٢٦٤.
(٢٢) الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن ج٦ ص٥١٤.
(٢٣) الزمخشري: الكشاف ج٤ ص٧٤ وكذلك اللآلوسي: روح المعاني ج٦٢ ص١٦٣.

﴿أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾[سورة الرعد: ٣٦].

إن تاريخ العلاقة بغير المسلمين التي أشارت أليها بعض الآيات القرآنية كانت علاقات متشابكة ومن غير الممكن اختزالها في موقف واحد بل تستوعب مواقف متعددة، وقد تضمنت هذه الآية بعض المواقف الإيجابية من القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني بهم مؤمني أهل التوراة ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾فالمعنيون بالآية المحقون من النصارى وهم القائلون بكون المسيح بشراً رسولاً كقول ((النجاشي)) وأصحابه الذين هم في عصر النزول، ويرى الطباطبائي أن ذيل الآية يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو﴾قال: فإنه أنسب أن يخاطب به النصارى[٢٤] وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ من أحزاب أهل الكتاب من ينكر بعض ما أنزل على الرسول، وهو ما دل منه على التوحيد ونفي التثليث وسائر ما يخالف ما عند أهل الكتاب من المعارف والأحكام المحرفة[٢٥] وغرض الآية موقف تلك الأحزاب من مسألة التوحيد وإظهار فكرة التثليث التي يرفضها القرآن ويحاربها الإسلام.

المحور الرابع: قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٢٠-٢٢].

الأحزاب: جمع حزب وهم بنو أمية، وبنو المغيرة وآل أبي طلحة بن عبد العزى كلهم من قريش، وأُتْلَفَ معهم من بني النضير من اليهود وبني وائل[٢٦] بتحريض

(٢٤) الطباطبائي: الميزان ج١١ ص٣٣٢.

(٢٥) الطباطبائي: الميزان ج١١ ص٣٧٢.

(٢٦) قال ابن إسحاق: القوات التي شاركت في غزوة الخندق، خرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وغطفان، وقائدها عيينة بن حصن في بني فزارة، والحارث بن عوف

من اليهود[٢٧] على غزو المدينة في شوال السنة الخامسة للهجرة[٢٨] وكانت هذه الأحزاب تسوقها رغبة ليس لمصلحة خاصة فقط بل خلق رأي عام وثني مقابل دعوة التوحيد وغرض هذا الحراك الوثني، الرفع من شأن قيم جاهلية كانت سائدة في الجزيرة تعرض الإسلام لسحقها وإيقاف نشاطها.

هذه الأحزاب أُتْلِفَتْ وكونت حملة عسكرية ضد حركة التوحيد المتنامية في الجزيرة في الوقت الذي كانت وقائع المسلمين العسكرية تدك حصون الشرك الوثني وتقدم كل صور التعاون من اجل أقامة عقيدة التوحيد في شبه الجزيرة ولكن القدرة القرشية في أبعادها القبلية المتعددة العناوين تملك قوة الإرادة بين صفوف القبائل وقوة النفوذ والمبادرة للحرب، وتحويل هذا الجمع المتحزب إلى جيش يقود معركة شاملة عرفت ((بمعركة الأحزاب)) وكان بوسعها الانقضاض على معالم التوحيد الذي انتشر في ربوع الجزيرة إلا أن العناية الإلهية تدخلت في الوقت المناسب لحسم المعركة لصالح المسلمين.

استكملت الآية المشار إليها مواقف

=في بني مرة، ومسعر بن رخيلة فيمن تابعه من قومه من أشجع/ السيرة النبوية ج٣ ص٢٢٥.

وذكر الواقدي: عدد القوات المشاركة قال: وخرجت قريش ومن تبعها من أحباشهم أربعة الألف، وقادوا معهم ثلاثمائة فرس وكان معهم من الظهير ألف وخمسمائة بعير، وخرجوا يقودهم ابو سفيان بن حرب بن أمية (المغازي ص٤٧٧).

(٢٧) يرى أحمد صالح العلي: أن من الصعب قبول ابن إسحاق والواقدي أن قيام مشركي مكة بمعركة الخندق كان استجابة لتحريض بني النضير، ويعلل ذلك بأن رجال قريش كانوا متمرسين في السياسة، ويدركون مصالحهم الخاصة، فيهتمون بها دون غيرها ولم يسبق لهم أن شاركوا في حرب تخدم مصلحة غيرهم. ويرجح أن قيام قريش بإعداد الحملة كان لتأمين مصالحها الخاصة المهددة، وليس لمجرد استجابة عاطفية لتحريض نفر من اليهود الدخلاء الأغراب عليهم وقال: إذا صح اتصال اليهود بهم فإن الغرض من هذا الاتصال التشجيع والتنسيق وليس لاعداد قريش لعمل كبير يخدم مصالح غيرها/ الدولة في عهد الرسول ج١ ص٢٣٤-١٣٥.

(٢٨) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٥٦٤.

المنافقين من غزوة الخندق في آيات سابقة عندما اشتد الخطب، قالوا: وهم يخذِّلون الناس، كان محمد يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر، وأن أحدنا لا يقدر على أن يذهب الآن لقضاء حاجته فترجم الله قولهم هذا ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[سورة الأحزاب: ١٢] وقد هَمَّ المنافقون والذين في قلوبهم مرض بالفرار من معسكر الرسول لإيقاع الخلل والفزع في صفوف المجاهدين ولكنهم استأذنوا رسول الله ﷺ كذباً ونفاقاً يقولون: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ -ولكن الله كذبهم- وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [سورة الأحزاب: ١٤] ولما هزم المسلمون أبا سفيان ومن معه من عرب الجزيرة ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾بعلي بن أبي طالب بعدما قتل قائدهم العسكري عمرو بن ود[٢٩] دب الرعب في قلوبهم ووقع التخاذل في صفوفهم بعث الله عليهم ريحاً عاصفاً في ليل شات ففرق جمعهم وقفلوا راجعين إلى ديارهم مذعورين ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ﴾ولكن المنافقين لم يتعضوا بهذا الانتصار الساحق ((يحسبون الأحزاب الذين انهزموا)) أنهم لم يذهبوا من شدة فزعهم وتمنوا أن لو جاء الأحزاب وأن يكونوا في البوادي مع الأعراب يسألون عن أخبار المسلمين ولم يجاهدوا معهم[٣٠].

والآيتان تحددان بوضوح الصفات التي عليها حال الحزبين وطبيعة الصراع بين حزب الله وحزب الشيطان، وقد تظهر محاور هذا الصراع من المواقف التي يتخذها كل واحد منهما.

الآية الأولى: تستعرض موقف المنافقين المتمثل ((بحزب الشيطان)) كأنما تصف الرعب والخوف الشديد، وهي الصفة الأكثر قرباً والتصاقا ((بحزب الشيطان)) والتي تمثل أوضح وأرسخ معاني الجبن في نفوسهم فهم يخيّل لهم من خوفهم أن الأحزاب الذين تلاشت قوتهم وتبعثرت في صحراء المدينة كانوا يخافونهم عند عودتهم المفترضة وكانوا يودون لو كانوا في البوادي مع الأعراب يسألون عن أنباء الحرب ولا يكونون بين المقاتلين مع انهم عند حضورهم كأنهم غائبون عن

(٢٩) الطبرسي: مجمع البيان ج٨ ص٣٤٦.

(٣٠) الطوسي: تفسير البيان ج٨ ص٣٢٦.

المعركة[٣١] ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾.

الآية الثانية: تحدد الإيمان المتمثل ((بحزب الله)) الذي هو وصف واستقراء لحالة المؤمنين لما شاهدوا أحزاب الشيطان تنزل وتطوق المدينة بجيوشهم، فكان انطلاقا من عقيدتهم السليمة التي سبب رشدهم وتبّصرهم في الإيمان وتصديقهم لله ولرسوله عندما وعدهم أن الأحزاب سيتظاهرون عليهم فلما شاهدوهم تبين لهم أن ذلك هو الذي وعدهم به ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ على خلاف ما ظهر من المنافقين والذين في قلوبهم مرض من الارتياب والقول السيئ[٣٢].

بعد انتصار المسلمين في معركة الأحزاب أستمر الصراع الخفي والمعلن يقوده ((حزب الشيطان)) وهم جماعة من المنافقين الذين أسلموا مكرهين، كشف القرآن عن ما تنطوي عليه أنفسهم المريضة من النفاق، كلما أحرز الإسلام انتصاراً ازداد حقدهم وتآمرهم، فهم يتظاهرون بالإيمان ويتخذون الكافرين أولياء تقرباً وتحبباً ومودة ومساندة ومناصرة من دون المؤمنين فوصف القرآن تلك ((الموالاة)) البغيضة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [سورة النساء: ١٣٩].

هذا وصف -يراه صاحب الميزان- أعم مصداقاً من المنافقين الذين لم تؤمن قلوبهم، وإنما يتظاهرون بالإيمان فهم طائفة من المؤمنين لم يستقر الإيمان في قلوبهم وهم لا يزالون مبتلين بموالاة الكافرين والانقطاع عن جماعة المؤمنين والاتصال بهم سراً واتخاذ بطانة منهم وخاصة لهم يعتمدون عليهم حتى في زمن الرسول ﷺ.

فكونهم سالكين مسلك المؤمنين أثبت الله لهم بعض الذكر في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فأثبت لهم شيئاً من ذكر الله تعالى وهو بعيد الانطباق على المنافقين الذين لم يؤمنوا

(٣١) الفخر الرازي: التفسير الكبير ج٢٥ ص٢٠٢.
(٣٢) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن ج١٦ ص٢٨٩.

بقلوبهم قط[٣٣] ولكن بوصفه نصاً دينياً يؤطر مختلف هذه النماذج غير المؤمنة بإطار الدين محاولة حبسهم داخل إطار المعطيات الإسلامية كما فعل النبيﷺ مع أبي سفيان عند دخول مكة فاتحاً.

إذن فالموالاة من معانيها، التناصر والتناصح والتعاطف والتعاضد والتوادد وهي كلها صفات يراد بها العزة والسؤدد الذي فقدوه، فهم يطلبونه في غير مظانه فكان الجواب بصيغة الإنكار ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

وفي القرآن الكريم نصوص كثيرة تسجل مواقف للمنافقين وتكشف نفاقهم وصراعهم المستمر مع الإسلام، ولم تكن حياة المسلمين خلال السنوات العشر التي عاشوها في ظل الوحي في المدينة خالية من الأحداث التي ارتبط وجودها بالمنافقين، ولما أنقطع الوحي بوفاة رسول اللهﷺ ظل الصراع مستمراً والوقائع المثيرة للجدل مشبعة بحقد عميق حتى إذا ما تغير نظام ((دولة الرسول)) من الولاية إلى الشورى كان العنصر المنافق هو الفاعل في التغيير والمؤثر في الاتجاه السياسي والاجتماعي، ولا يشك المتابع للأحداث التي واكبت عصر الخلافة إنه صراع قائم بين ((حزب الله)) و ((حزب الشيطان)) مصداق قوله تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [سورة المجادلة: ١٩].

الرؤية الولائية لمجتمع المدينة في نظر القرآن

مدخل تعريفي:

قد ينظر إلى الدراسات القرآنية بتعدد موضوعاتها من حيث المبدأ، ولكن كثيراً ما يتم إغفال تصور الرؤية القرآنية للحياة الاجتماعية والسياسية للبواكير الأولى لدولة الرسول في المدينة، لما لها من سلطة تتمتع بشرعية ذاتية ولائية لكونها ولاية مطلقة قطعية الدلالة والسند لأنهﷺ ﴿أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فتكون السلطات كلها مجتمعة ومتمركزة في شخصهﷺ هو الولي الشرعي للأمة، وقد أمره الله تعالى ووجه عنايته للأمور التي تنظم حياة المسلمين الاجتماعية

(٣٣) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن ج٥ ص١١٥.

والسياسية جزاءً لهم على إيمانهم، لذا، وبواسطة منهج هذه الولاية التي اوجدت ثورة فعلية في المجتمعات فلابد من بلورة نظرية علمية موضوعية خاصة في علم الاجتماع التاريخي في ضوء القرآن ولم تكن هذه الرؤية حاضرة في الدراسات القرآنية التراثية، وانْ تمسكَ بعضُ المفسرين بالنهج التاريخي وتعرضوا إلى حوادث اجتماعية عالج موضوعاتها القرآن ولكن لم تتح لهم معالم الرؤية الاجتماعية التي زخرت بها آيات القرآن. ولما كان عدم الرؤية هذا أوجد حواجزاً وحدوداً أمام الدراسات القرآنية وفق المتغيرات الحياتية للمجتمع، انعكس الأمر سلباً على منهجية البحث القرآني الحديث.

ومن المعلوم أن آفاق الدراسات القرآنية التراثية واسعة ومتسعة لأكثر العلوم الإنسانية وإن علماء التفسير درسوا كل شيء يتعلق بعلوم القرآن، في أوسع مجالات أبنيتها أو قواعدها وعلاقة المعاني بالألفاظ في حيزها اللغوي وإعجازها في الفصاحة والبلاغة[٣٤] درسوا أحوال وخصائص النزول بأوسع معاني السياقات الأدبية والأسباب التاريخية، حتى اتسعت لديهم مساحة الناسخ والمنسوخ، وكل أسباب النزول، وأنواع المكي والمدني بحسب تعاقبها في النزول.

كان من فوائد هذه الدراسات معرفة خصائص القرآن الكريم الذي هو حجة الله البالغة على خلقه والذي تتوقف معرفة العلوم الإنسانية على معرفته، ولا يمكن معرفة الدين الإسلامي والأديان السماوية الأخرى، إلا بفهمه فهماً صحيحاً.

لذا فمن الجدير بنا أن نقيّم هذا الجهد العظيم الذي قام به المخلصون من علماء الأمة، ولو اكتفينا بنتائج ما قاموا به من دراسات لما وسعنا مواكبة التطور العلمي واتساع ساحة الدراسات الحديثة المتخصصة في العلوم القرآنية لبيان وتوضيح أغراضها حيث تعرض الكثير منها للدراسات الاجتماعية والاقتصادية، فضلاً عن الأخلاقية التي زخرت بها

(٣٤) راجع في ذلك كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، ودلائل الإعجاز للجرجاني وتلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي والمثل السائر لأبن الأثير.

النصوص القرآنية والذي يهمنا في هذا الاتجاه ما ذكره القرآن -وهو الأساس المعتمد لسيرة الرسول ﷺ في المدينة- والوقوف عند آياته التي قارب نزولها في المدينة ثلثي القرآن الكريم واستوعبت أكثر الحوادث الاجتماعية، ونظراً لهذه المعطيات القرآنية، فليس من الصعب الوقوف عندها لتتضح معالم النظام الاجتماعي في دولة الرسول حيث تتحدد به ملامح فئتين الكل منهما تناقض صفتها صفة الأخرى ومن خلال هذا التناقض تتحدد معالم النظام الاجتماعي.

مجتمع المدينة في نظر القرآن

ينطلق القرآن الكريم من خلال نصوصه ليرسم صورتين للحياة الاجتماعية السائدة آنذاك في المدينة أريدَ من خلالها تطبيقُ أحكام الولاية التي فرضها الله على المسلمين والتي تضم أعضاءها الجماعةُ المؤمنةُ بعضهم إلى بعض لتقتدي بها المجتمعات الأخرى.

الصورة الأولى: تمثلت في فئة اجتماعية تخص المؤمنين الذين آمنوا برسالة الإسلام إيماناً مطلقاً، كانوا أحسن الناس انتظاماً في مسالك حياتهم وأطوعهم انقياداً للدين وأكثرهم طاعة له، ولعل هذه الطاعة هي التي استحقت وصف الله تعالى لهم بالإيمان في أكثر آيات القرآن لأنهم تمكنوا من العمل بقواعد الشريعة استجابة لأمره تعالى والتزموا بالأمر والنهي الذي أوجب الله العمل به احتساباً، وخصهم بولاية بعضهم بعضاً دلالة على وحدتهم الإيمانية قال تعالى في وصفهم: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة التوبة: ٧١].

أما الصورة الثانية: لمجتمع المدينة، فقد تمثلت في فئة المنافقين(*) وهي صورة قاتمة

(*) المنافقون : مفردها منافق وهم اسم جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه وكان الأصل من نافقاء حيث ذكروا أن اليربوع يحفر في جحره طريقاً يكتمها تسمى ((النفقاء)) يظهر طريقاً مخالفاً لها تسمى ((القصعاء)) فإذا أتي من وجهة الطريق الظاهر ضرب النافقاء برأسه فأنتفقت ونجا وقد قيل أن النفاق لفظ حبشي معناه البدعة والضلال وهو في الحبشة من الألفاظ=

تمثل شريحة اجتماعية غير واضحة السلوك والمعتقد للمجتمع المدني، أظهرت الإيمان وأبطنت الكفر فكانت أخطر من الكافرين على الإسلام والمسلمين، اختارت هذه الفئة لنفسها العيش في ظلام الجاهلية مع وجود نور الإسلام، وكان دورها سلبياً استعمل في سياق العلاقات مع من يتربص بالإسلام الدوائر من يهود المدينة والوثنية القرشية، ولما كثر عددهم في المدينة ومن حولها من الأعراب، أصبحوا يشكلون كتلة اجتماعية مناوئة للإسلام.

كانت هذه الفئة المنافقة لا ترى أن القرآن كلام الله منزل من عنده تعالى، وكان أكثرهم لا يرى الصدق في قول رسول الله ﷺ، وعندما تتلى على الناس آيات من القرآن يستهزؤون بها فحكى الله قولهم حين قال: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾[سورة البقرة: ١٤].

ولما كان هذا حالهم، ظل ينتابهم الشعور بالإثم ويود أحدهم أن يخرج من ظلمة الغفلة هذه إلى نور الإيمان، ولكن نفوسهم المريضة تدفعهم إلى التمرد على مجتمعهم المؤمن، وهم مع ذلك كانوا يخافون ظهور نفاقهم وافتضاح ما خبؤوه في سرائرهم الخفية[٣٥] أن ينزل الله بحقهم سورة تخبر عما في قلوبهم من نفاق وشرك، ولكن في الوقت نفسه تراودهم المخاوف أن يكون النبي ﷺ صادقاً فيخبره الوحي فيفتضح أمرهم[٣٦] وإذا بالوحي كما ظنوا أنزل على النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [سورة التوبة: ٦٤].

في الآية ((استعارة)) -كما يراها الشريف الرضي -لأن السورة نطقها من جهة البرهان لا من جهة اللسان، فكأنه تعالى أراد للناس أن يعلموا بهذه السورة النازلة في المنافقين في إظهار ما في بواطن نفوسهم حتى يعرفوهم على حقيقتهم

=العبرانية/ الرافعي: تاريخ آداب العرب ج١ ص٢٢١ مع الهامش.

(٣٥) الطباطبائي: الميزان ج٩ ص٣٢٨.

(٣٦) الطبرسي: مجمع البيان ج٥ ص٤٦.

بما ذكر الله من أوصافهم ومذموم أخلاقهم[٣٧].

أما السورة التي ذكرت في الآية جاءت في وصف المنافقين وكانت ترمز للظواهر الاجتماعية السائدة في مجتمع المدينة وضواحيها فضلاً عن الطريقة التي عالجت بها حركة النفاق حيث سجلت آياتها مواقف حاسمة شكلت جانباً مهماً من التحديات لاسيما في مخاطبة هؤلاء الذين كانوا يرثون جواً من التخاذل والتشكيك وتكذيب ما جاء به الوحي حيث كانوا يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة أرادوا بقولهم ((نشهد بأنك رسول الله)) حكاية لإظهارهم الإيمان بالشهادة على الرسالة فإن في الشهادة إيماناً بما جاء به رسول الله ﷺ ويتضمن الإيمان بوحدانيته تعالى وبالمعاد وهو الإيمان الكامل[٣٨] هو ما استوجب رد القرآن الصارم والحازم على هذا النفاق المبطن ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [سورة المنافقون: ١ -٤].

هذا الموقف القرآني الصريح والعنيف أيضاً يحمل الكثير من الدلالات كلها تشير لحركة المنافقين التي بلغت مرحلة خطيرة في النفاق تبطن الكفر وتضمر العداء للإسلام فكان تحركها في الوسط الاجتماعي اشد ضرراً وأكثر الأذى أثراً على المسلمين وقد أخبرهم رسول الله ﷺ يوماً بما كانوا يفعلون عند رجوعهم من غزوة تبوك فخافوا واعتذروا قالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُ﴾ [سورة التوبة: ٦٥] حتى نقطع الطريق.

كان هؤلاء جماعة ممن خرج مع النبي ﷺ لهذه الغزوة يخوضون ويلعبون في الباطل من الكلام[٣٩] كما وصفهم

(٣٧) الشريف الرضي: تلخيص البيان في مجازات القرآن ص٦١.

(٣٨) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن ج١٩ ص٢٧٩.

(٣٩) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن ج١٩ ص٢٧٩.

القرآن الكريم فتواطؤا يوماً في ما بينهم على أن يمكروا بالنبي ﷺ وأسروا ذلك بكلمات كفروا بها بعد إسلامهم، ثم هموا أن يفعلوا ما اتفقوا عليه بفتك أو نحوه فأبطل الله كيدهم وفضحهم (٤٠) ولذلك أجابهم رسول الله ﷺ بقوله تعالى: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [سورة التوبة: ٦٥].

هذه واقعة واحدة أظهرها القرآن من أباطيلهم وتآمرهم على رسول الله ﷺ عندما كان راجعاً من سفره الجهادي من تبوك، وهناك وقائع أخرى حدثت لرسول الله مع هذه الزمرة المنافقة كان أبرزها هذا الموقف الاجتماعي الذي يصوره القرآن نموذجاً واضحاً وصورة شاخصة تنم عن حركة دائية يظهر فيها موقف الموازنة من تلكم الطائفتين المتقابلتين تقابل التضاد.

الأولى: كما مر طائفة المؤمنين الذين آمنوا برسالة السماء إيماناً صادقاً أساسه تقوى الله والعمل على مرضاته.

الثانية: طائفة المنافقين الذين أخذ نشاطهم يتسع في المدينة ومن حولها مصحوباً بحركة منظمة ضد الإسلام، وكان أحد مظاهر هذا النشاط بناء مسجد إلى جانب مسجد قباء ليضروا به ويفرقوا المؤمنين منه عرف هذا المسجد بعد ذلك ((بمسجد الضرار)).

هكذا رصد القرآن عمل مجتمع المدينة في عصر الرسول، وقد يمتد إلى غيره من العصور حيث رسم مشهداً متكاملاً تبرز فيه حركة الإيمان نموذجاً فاعلاً في الحياة، ثم أجرى مقايسة بين الإيمان القائم على ((تقوى الله)) وعمل النفاق القائم على الضلال وهو ((معصية الله)).

كانت حركة الإرصاد هذه بدأت وكأنها شاخصة حاضرة لتثبيت هذه الحقيقة التي درج عليها المجتمع، وقد لا يخلوا منها مجتمع من المجتمعات وتوكيدها في النفوس لذا ضرب الله تعالى لذلك مثلاً جاء مكملاً لعمل الفئتين المؤمنة والمنافقة في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ

(٤٠) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن ج٩ ص٣٢٦.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة التوبة: ١٠٩].

إن المثل القرآني هذا يمكن أن تتضح فيه المقارنة في إظهار البنائين اللذين يمثلان الإيمان في أقوى صوره، والنفاق في أضعف صورة لذا عندما أظهر القرآن صورة النفاق الذي مثل له ((بشفا جرف هار)) في قلة الثبات فانهار في جهنم، أي كأن حالة المنافقين التي شبه فيها حالهم، بحال من يبني بنياناً على شفير واد، لا ثقة بثباتها وقوامها فتساقطت بما بني عليه من البنيان فانهار في وادي جهنم[٤١] بخلاف من أسس بنيانه على قاعدة قوية محكمة البناء وهي الحق والعدل ((تقوى الله))[٤٢].

إذن لا يستوي عمل المتقي وعمل المنافق فإن عمل المتقي ثابت مستقيم مبني على أصل صحيح، وعمل المنافق ليس كذلك يتراءى دائماً بالسقوط[٤٣] ولا يرى -الفخر الرازي -مثالاً أظهر صورة النفاق على واقعها بهذا الوصف البليغ، كمثل هذا المثل القرآني[٤٤] ولا أبلغ من هذا الكلام ولا أدل على حقيقة الباطل عند الزمخشري[٤٥].

ليس هذا الوصف اختص بالمنافقين، وإن كان سبب النزول يخصهم وحدهم لما كان من قصة تأسيسهم ((لمسجد الضرار)) الذي بنيت قواعده على غير تقوى الله حيث قصد من ورائها الإضرار بالإسلام، وإنما جاء الوصف لحالة معنوية تضمنتها الآية وهي ((الاستعارة التخيلية)) أخذ وجه الشبه فيها، في استعارة المحسوس المادي إلى المنقول العقلي، فكأن المحسوس المادي هو البناء والمنقول هو ((التقوى)) وكذلك الحال في الثاني، كان المحسوس المادي البناء والمنقول هو ((الشر)) وهو عقلي أيضاً. وكل هذه الصورة الوصفية في الآية، إنما استعيرت استعارة ((تخيلية)) لإثبات أمر عقلي لإيضاح العمل النافع من العمل الضار وهما يتلازمان تلازم

(٤١) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن ج٩ ص٣٩١.
(٤٢) الزمخشري: الكشاف ج٢ ص٣١٢.
(٤٣) الطبرسي: مجمع البيان ج٥ ص٧٣.
(٤٤) الفخر الرازي: التفسير الكبير ج١٦ ص١٩٧.
(٤٥) الزمخشري: الكشاف ج٢ ص٣١٢.

الضد يمثلان امتداداً -إذا ما أردنا إجراء في أي عمل تعبدي آخر -نجده صفة مميزة له يتفرق فيها الإحساس بين الهدى والضلال[٤٦].

بذلك نستطيع أن نقول: إن غموض وسرية تحرك المنافقين وعملهم السري غير المعروف في الوسط الاجتماعي لا يلغي وجودهم كخطر يهدد وحدة مجتمع[٤٧] المدينة ولذلك حذر الله منهم في السورة الحاملة لأسمهم ((المنافقون)) والذاكرة لأوصافهم العامة الجامعة وتعريفهم بها ليحذر المؤمنين أستتماماً للقسمة التي أظهرها الله في الآيتين السابقتين وخص كل منها بولاية بعضهم البعض الآخر.

اهتم القرآن بأمر المنافقين اهتماماً بالغاً ووصفهم بأدق الوصف وأعنفه وذكر مساوئ أخلاقهم وأكاذيبهم وخداعهم ودسائسهم والفتن التي أشعلوا جذوتها على النبيﷺ وعلى المسلمين، وقد تكرر ذكرهم في السور القرآنية كسورة البقرة وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال والتوبة والعنكبوت والأحزاب، والفتح، والحديد، والحشر، والمنافقون، والتحريم.

وقد أوعدهم في كل هذه الآيات المذكورة في السور أشد الوعيد ففي الدنيا كان الطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون وجعل الغشاوة على سمعهم وعلى أبصارهم وإذهاب نور إيمانهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون الحق، وفي الآخرة يجعلهم في الدرك الأسفل من النار[٤٨].

(٤٦) موسى راض نصار: الجهاد الدفاعي وظاهرة الارهاب المسلح ص٩٧.

(٤٧) موسى راضي نصار: نظام الحسبة في الإسلام بين التنظير والتطبيق ج١ ص١٣٦.

(٤٨) الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن ج١٩ ص٢٨٨.